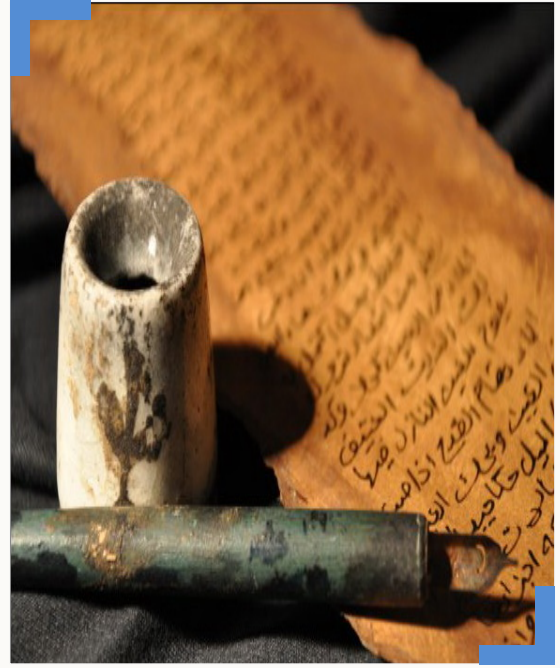


ملخص

لقد صاحب الانتعاش الاقتصادي لبلاد المغرب الأوسط خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي في عهد الدولة الزيانية تطوراً ثقافياً معرفياً تجلّى في بزوغ العاصمة تلمسان كمركز إشعاع ثقافي وقطب علمي. مستفيدة من ظاهرة التنافس الثقافي بين الأقطار، وكان السباق قائماً بين بلدان المشرق والمغرب والأندلس وعواصمها المختلفة المهدية وبجاية وفاس، وتلمسان، وسبته، وبغداد والقاهرة والمدينة المنورة، ومكة، وغيرها. وقد ساعد على هذا التنافس وعطائه الحضاري، ما كان يلتزم به حكام الدولة الزيانية من رعاية العلماء والأدباء والشعراء. فكانوا يغرونهم بالقدوم عليهم، ويجودون عليهم بالعطاء جوداً حاثمياً. وقد برز بهذا المظهر الحضاري دور جديد في الآداب المغربية يسميه أحد المؤرخين المعاصرين بالدور المدرسي، وهو دور تم وضع حجره الأساس في القرن الخامس الهجري. ودخل المغرب الأوسط هذا الدور بكل قوة ابتداءً من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وإن جاء متأخراً نوعاً ما مقارنة مع بلدان المشرق والمغرب، فشيدت المدارس الأنيقة والمساجد الخلابة والزوايا الرائعة المنظر تغنى بها الشعراء وأبهرت كل من شاهدها، حتى بلغ صداها مشارق الأرض ومغاربها، وتصدى للتدريس بهذه المؤسسات العلمية خيرة العلماء وأجلهم، فأصبحوا محل استقطاب أمراء وسلطين ووزراء الدولة والطلبة من مختلف البقاع. ويبدو أنه بعد هذا الدور بدأت الدولة الزيانية تدخل في عداد الدول المغربية فعلاً.

مقدمة

أن الناظر في تاريخ الأمم، قديمها وحديثها، يلاحظ أن تحضرها ورقمها كان مرتبطاً بالعلم ارتباطاً وثيقاً، كما أن تخلفها وانحطاطها كان مرتبطاً بالجهل ارتباطاً وطيقاً، فبالعلم تحضرت أمم وازدهرت وتركزت بصمات شاهدة على مدى مبلغها من العلم والتحضر والرقى، وبالجهل والابتعاد عن العلم والتعليم تخلفت وتدهورت أمم ولم يذكرها التاريخ إلا في مواضع ذكره للتخلف والبداءة والهمجية. لذلك ومنذ الوهلة الأولى اقترن ظهور الإسلام بالدعوة إلى التعليم منذ بداية التنزيل، على شكل كلمة مفتاحية وهي (اقرأ). وتبعاً لسنة التطور ونمو حياة البشرية، فإن التعليم بدأ أول أمره في المسجد، إذ كان الرسول ومن بعده الصحابة رضوان الله عليهم يعلمون فيه المسلمين أمور دينهم، واستمر الأمر على هذا المنوال أن حدث تطور على مستوى العلوم في المجتمع الإسلامي، وظهرت فرق كلامية، وبرزت مذاهب فقهية، فاستحدث المسلمون تبعاً لذلك مواضع أخرى للتعليم مثل الحوانيت والدكاكين والكتاتيب والبلاطات وحتى منازل العلماء. والملاحظ: أن معظم هذه المواضع كان التعليم فيها مفتوحاً للجميع، والحضور غير منظم، فلا أحد يلزم بذلك، إلا ما كان من بعض الأفراد الذين يلزمون أنفسهم بحضور مجلس شيخ. كما كانت مواضع التعليم هذه المكان المثالي والأرضية الخصبة



المؤسسات التعليمية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي

عبّاس قويدر

ماجستير تاريخ المغرب الأوسط الحضاري
كلية الآداب – جامعة الجيلالي اليابس
سيدي بلعباس – الجمهورية الجزائرية



الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبّاس قويدر، المؤسسات التعليمية في المغرب الأوسط: خلال القرنين الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. دورية كان التاريخية. العدد الثامن عشر: ديسمبر ٢٠١٢. ص ٨٦ – ٩٢.

www.kanhistorique.org

ISSN: 2090 - 0449

خمس أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ – ٢٠١٢

والتدريس.^(٨) وإذا كان ظهور المدرس في قطري المغرب الأدنى والأقصى تزامناً وقيام الدولتين الحفصية والمرينية، ونشطه الوافدون من الأندلس، فهل ينطبق هذا على المغرب الأوسط خلال القرن ٨هـ، ١٤م في ظل الدول الزيانية؟ وهل كان سلاطين الدولة ميالين لبناء وتشيد الصروح العلمية؟ وهل استطاع هذا القطر أن يفرض نفسه كمركز علمي ثقافي ينافس بقية الأقطار؟ ويستقطب خيرة العلماء؟

نشأة المدارس في بلاد المغرب الأوسط في عهد الدول الزيانية

إن التسابق المحموم والتنافس الشديد الذي شهده العالم الإسلامي بشكل عام والمغرب الإسلامي بشكل خاص حول النبوغ العلمي والتفوق الفكري والريادة الثقافية، شجع وحسّس سلاطين بني زيان على الدخول في السباق بكل قوة علمية يفتكون مرتبة مشرفة على سلم الإشعاع العلمي، فاهتموا بتشيد المؤسسات التربوية والتعليمية، من كتاتيب وزوايا ومساجد وبشكل خاص المدارس على نمط المدارس النظامية في المشرق والمغرب. والتي لم تظهر في تلمسان إلا في مطلع القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، متأخرة عن بلاد المشرق بنحو قرنين من الزمن. وعن إفريقية والمغرب الأقصى بنحو نصف قرن.^(٩) وحسب ما ذكره (بارجيه- BARGES)، كان يتواجد في تلمسان لوحدها العديد من المساجد الرائعة الجمال، كما كانت تضم مجموعة من المدارس أنشأت من قبل ملوك تلمسان، وكان غالبية المتدربين يتلقون تعليمهم مجاناً، وكانوا يتدارسون العلوم الدينية المنطق والرياضيات وغيرها من العلوم.^(١٠) وتمثلت وظيفة هذه المؤسسات الثقافية في استقبال الطلبة لمزاولة تعليمهم قصد تخرج الإطارات التي تدعم الجهاز السياسي والإداري والمالي والقضائي والجيش ومختلف مصالح الدولة ومؤسساتها. وكان الهدف من وراء حركة تأسيس المدارس من طرف الدولة الزيانية، هو نشر التعليم والثقافة من جهة، ومن جهة أخرى توجيه الرعاية لخدمة التوجه المذهبي للدولة، وهي نصرة المذهب المالكي والعمل على نشره،^(١١) وكانت المدارس خير الوسائل المتاحة لتحقيق تلك الغاية.^(١٢) ولم يقتصر تشيد المدارس على الدولة الزيانية، بل حتى بنو مرين شيدوا مدارس على التراب التلمساني.

١- المدارس الزيانية

١/١- مدرسة ولدي الإمام:

يعتبر السلطان أبي حمو موسى الأول مؤسس أول مدرسة في تاريخ تلمسان الزيانية، وعُرفت باسم مدرسة الأخوين ابني الإمام وذلك سنة ٧١٠هـ / ١٣١٠م، وقد أنشأها تكريماً للعالمين الجليلين الفقهيين أبي زيد عبد الرحمن،^(١٣) وأخيه أبي موسى عيسى ابني الإمام الفقيه أبي عبد الله محمد بن الإمام،^(١٤) واللذان دخلا تلمسان في عهد هذا السلطان فأكرمهما وابتنى لهما هذه المدرسة بناحية المطمر والتي سُميت باسمهما، كما اختط لهما مسجداً ومنزليين.^(١٥) وما يحز في النفس أن المصادر التاريخية لم تسعفا

لتكوين ثلّة من الفرق الكلامية والمذاهب الفقهية لتحسين فرقهم ومذهبهم من مناورتهم.

والمؤسسات التعليمية من العوامل الهامة التي أثرت في الحياة العلمية في المغرب الإسلامي، ولكن دور هذه المؤسسات اختلف من فترة إلى أخرى ويمكن تقسيم المؤسسات التعليمية إلى:

- مؤسسات تعبدية، واستخدمت للتعليم وتتمثل في المساجد، وهي أقدم أماكن التعلم في المغرب الإسلامي.
- مؤسسات أوقفت على التعليم وحده متصلة بالمسجد حيثاً، ومنفصلة عنه حيثاً آخر، وهي الكتاتيب.
- مؤسسات تعبدية جهادية مثل الأربطة أو الرباطات أو الزوايا، ولكنها استخدمت للتعليم.
- التعلم في المنازل، وهو إما خاص أو عام، فالأول في منازل المؤدبين والثاني في منازل العلماء.^(١٦)
- ثم ظهر فيما بعد ما يُعرف بالمدارس النظامية التي تصدرت المؤسسات التعليمية من حيث الأهمية والدور التربوي والعلمي وهو موضوع حديثنا.

والشائع عن نشأة المدارس وظهورها في العالم الإسلامي، أن أول مدرسة ذات نظام تعليمي وإداري ومالي بُنيت سنة ٤٥٩ هـ/ ١٠٦٨م على يد الوزير السلجوقي نظام الملك، بناءً على ما ذكره ابن خلكان.^(١٧) وقد ردّ الإمام السبكي هذا القول عندما ذكر أن ظهور المدارس كان قبل ذلك.^(١٨) أما في بلاد المغرب الإسلامي، فأول مدرسة ظهرت هي تلك التي بناها يعقوب المنصور الموحيدي (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م - ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م) في حدود سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م في مدينة سلا شمال الجامع الأعظم الذي شيد في عهده.^(١٩) وعلى الرغم من أن هذه المدرسة كانت بعيدة عن كونها مؤسسة منظمة ومؤطرة، إلا أنها مهّدت لظهور مدارس نظامية قائمة بذاتها خلال القرن السابع الهجري، الثالث عشر ميلادي،^(٢٠) الذي شهد ظهور أول مدرسة نظامية في بلاد المغرب أنشأها أبو زكريا يحيى الحفصي (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م - ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م) سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م، عُرفت باسم المدرسة الشماعية. وقد توالى بعد ذلك بناء المدارس في إفريقية منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي.^(٢١)

أما في المغرب الأقصى، فتزامن ظهور المدارس بقيام الدولة المرينية، فشيد السلطان يعقوب بن عبد الحق (٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م - ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م) أول مدرسة في القطر سميت الصفارين،^(٢٢) وكان ذلك حوالي سنة ٦٧٠هـ/ ١٢٧١م. وتلاها تشيد مدارس أخرى كمدرسة العطارين، ومدرسة المدينة البيضاء، ومدرسة الصهرج. وقد ساعد على ظهور هذا الاتجاه نزوح عدد كبير من فقهاء السنة المالكية من الأندلس، بعد سقوط المدن الأندلسية خلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، واستقرارهم في الحواضر المغربية الكبرى، فقرّبهم سلاطينها وعيّنوهم في وظائف الإفتاء والكتابة والقضاء

العديمة النظير، التي بناها بإزاء الجامع الأعظم، ما ترك شيئاً مما اختصت به قصوره المشيدة، إلا وشيد مثله بها، شكر الله له صنعه وأجزل له عليه ثوابه".^(٢٥) فكانت من خلال ذلك أهم مدرسة في المغرب الأوسط قد احتفل بها هذا السلطان المتشبه بالعلوم والفنون والذي أبا إلى أن يضيف إلى عاصمته معلماً آخر ينافس المعالم السابقة، ولأن يجلب إليه العلماء الأجلاء أمثال: أبي موسى عمران المشدالي،^(٢٦) الذي كان من أكبر الفقهاء المالكيين في عصره وأبي عبد الله السلاوي، ومحمد بن أحمد بن علي بن أبي عمرو التميمي. كما اعتنى أبو تاشفين بالمدرسة، وأكثر عليها الأوقاف ورتب فيها الجرايات، وفي الواقع فقد سلك هذا الملك مسلك أسلافه إذ أن أبا حمو موسى الأول (١٣٠٨ - ١٣١٨) حينما بنى المدرسة القديمة قد استدعى للتعليم فيها كلا من أبي زيد عبد الرحمان، وأبي موسى عيسى.^(٢٧)

من بين المصادر القليلة التي أشارت إلى التاشفينية وتغنت بروعتها ورونقها، نذكر كتاب (نفح الطيب) للمقري الذي ضمّنه بعض الأبيات الشعرية التي رآها منقوشة بأعلى دائرة مجرى الماء، فيقول: "رأيت مكتوباً بأعلى دائرة مجرى الماء في مدرسة تلمسان التي بناها أمير المسلمين ابن تاشفين الزياني، وهي من بدائع الدنيا هذه الأبيات:"^(٢٨)

أنظر بعينك مهجتي وسنائي وبديع إتقاني وحسن بنائي
وبديع شكلي واعتبر فيما ترى من نشأتي بل من تدفق مائي
جسم لطيف ذائب سيلانه صاف كذوب الفضة البيضاء
قد حف بي أزهار وشي نمت فغدت كمثّل الروض غبّ سماء

وقد ظلت هذه المدرسة التي كانت تعد من أجمل مدارس المغرب الأوسط تقوم بوظيفتها التربوية الثقافية طوال فترة تواجد الدولة الزيانية،^(٢٩) واستمرت تؤدي رسالتها حتى القرن السادس عشر.^(٣٠) وباندثار المدرسة وهيكلها واختفاء كل أثر دالّ عليها، أصبح من الصعب الإحاطة بكل التفاصيل المتعلقة بها، سواء فيما تعلق بهيكلها وإدارتها أو نظام تسييرها تربوياً، وطرق التدريس بها ولائحة أشهر مدرسيها ومريديها. وحتى الكتب التاريخية لم تتحدث أي وثيقة تبين التحسيس أو التوقيف عن مدارس المغرب الأوسط في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي على الرغم من إشارة بعض المصادر التاريخية صراحةً إلى ما قام به السلطان أبي تاشفين الزياني وباقي ملوك الدولة الزيانية من تحسيس وتوقيف الأموال والأماكن المختلفة عليها،^(٣١) والتي كانت تنفق في:

- - أجور المدرسين من العملاء وجرايات الطابة.
- - تخصص جزء من المداخل لإصلاح المؤسسات، وشراء مختلف التجهيزات الضرورية من حصير وأفرشة وزيت الوقود.
- - منح إعطيات للأطراف الإدارية المسيرة لشؤون المدرسة، والسهر على خدمة الطلبة، إضافةً إلى القائمين على نطاق البناية وحراسها.^(٣٢)

بالمعطيات الضرورية عن تدشين هذا الصرح الحدث في تاريخ بلاد المغرب الأوسط، وكل ما ذكر كان عبارة عن إشارات أثناء الإشادة بأعمال السلطان أبي حمو موسى الأول، فيقول التنسي عن ظروف وهدف تأسيسها: "... كان محباً للعلم وأهله معتنياً به (أي أبي حمو موسى الأول) قائماً لحقه، ابتنى مدرسة لابني الإمام تكريماً لهما واحتفاء بهما".^(٣٦) وفي إشارة إلى المدرسة يقول ابن مريم: "وبنيت المدرسة داخل باب كشوط".^(٣٧)

ولما كانت مدرسة أولاد الإمام هي أول مؤسسة تربوية ثقافية في حاضرة الدولة الزيانية، فقد عين السلطان للتدريس بها كبار العلماء الذين طبقت شهرتهم بلاد المغرب وحتى المشرق، حيث قام بالتدريس فيها علماء من أمثال التلمسانيان ابنا الإمام وشيخا المالكية وفضلاً المغرب في وقتها.^(٣٨) وبما أن الطبيعة ويد الإنسان العابثة لم تترك لنا أي أثر للمدرسة ومترلي الإمامين، فقد حاول (مارسيه-MARCAIS) من خلال ما توصل إليه من دلائل وقرائن تاريخية أن يرسم صورة افتراضية للمعلم. وحسب ما توصل إليه من نتائج فإن المدرسة كانت تتموقع غرب مسجد أولاد الإمام وشماله، وأنها كانت تتألف من قاعتين كبيرتين، يتلقى فيها طلبة العلم دروسهم على يد الشيخين الجليلين ابني الإمام.^(٣٩) ولكن في غياب الشواهد المادية المتمثلة في الحوالات الحيسية أو وثائق التحسيس الملحقة بالمدرسة، يصعب على أي كان التعرف على دور المدرسة الفكري، ومساهمتها في نشر الثقافة الإسلامية ومختلف العلوم، وتكوين الأطر وإعدادها للقيام بدورها في المجتمع بالتعليم والتأليف وشغل المناصب العليا في الدولة.^(٤٠) واستمرت هذه المدرسة في تأدية مهامها التربوية التعليمية الثقافية حتى القرن العاشر/ السادس عشر الميلادي.^(٤١)

٢/١- المدرسة التاشفينية:

تعد المدرسة التاشفينية ثاني مؤسسة تعليمية زيانية أسست في بلاد المغرب الأوسط سنة ٧٢٥هـ/١١٧٩م، بناها السلطان عبد الرحمن أبو تاشفين (٧١٨هـ/١٣١٨م - ٧٣٧هـ/١٣٣٧م) على ضريح والده يعقوب وعميه أبي سعيد عثمان وأبي ثابت، وتم تدشينها في شهر صفر سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٤م.^(٤٢) تقع التاشفينية بإزاء المسجد الجامع جنوباً، وهي بذلك توجد في مجال يعتبر النواة الأولى بعد جامع أغادير الذي أسسه إدريس الأول خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي.^(٤٣) ويتبين أن اختيار موضع التاشفينية، لم يكن وليد الصدفة، بل خضع لاعتبارات إستراتيجية تكمن في رغبة مؤسسها في الاستفادة من هذا المجال الحيوي، واستثماره كي تنجح هذه المدرسة في أداء رسالتها التعليمية الثقافية، وطموحه في إضفاء طابع الإجلال والعظمة عليها، على اعتبار أن سكان المدينة تكن تقديرًا واحترامًا كبيرًا للمباني المجاورة لها.^(٤٤)

وأكد التنسي على أن هذه المدرسة من مآثر السلطان أبي تاشفين الزياني حين قال: "وحسن ذلك كله ببناء المدرسة الجليلة،

للتدريس بهذه المدرسة، والذي قال في شأنه صاحب البستان: "فانتقل إلى تلمسان، وتلقاه أبو حمو براحتيه وأصهر له في أبنته، فزوجها إياه وبني له مدرسة، وأقام الشريف يدرس العلم بها إلا أنه هلك رحمه الله غرقاً في البحر في طريق عودته من غرناطة إلى بلاده سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م".^(٣٨)

لقد فقدت هذه المدرسة الكثير من ملامحها القديمة وأصبحت جزءاً من مسجد الشيخ إبراهيم المصمودي ومن الضريح، فيصعب بذلك وصف أقسامها ومرافقها.^(٣٩) إلا أنه لا يمكن إغفال مساهمتها في إعداد وتكوين عدد من العلماء والفقهاء والخطباء والقضاة، كان لهم الأثر البالغ في الحياة الفكرية ونشر اللغة العربية وتثبيت المذهب المالكي في المنطقة وترسيخ الثقافة الإسلامية.

٢- المداس المرينية

١- مدرسة العباد:

أنشأها السلطان أبو الحسن علي بن أبي سعيد عثمان المريني سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٧م^(٤٠) في القرية المسماة العباد، لتكون مركزاً علمياً ثقافياً راقياً يستطيع أن يزاحم ما تواجد آنذاك من مدارس علمية معرفية. كما عُرفت المدرسة أيضاً باسم سيدي بومدين، وهذا لتخليد ذكرى العالم الجليل الذي ذاع صيته في جميع أنحاء بلاد المغرب الإسلامي، وهو أبو مدين شعيب بن الحسن الأنصاري دفين تلمسان (ت ٥٩٤هـ/١١٩٧م).^(٤١) وقد وردت إشارة لهذه المدرسة حين قال ابن مرزوق: "... وبالعباد ظاهر تلمسان وحذاء الجامع الذي قدمت ذكره، وفي الجزائر مدارس مختلفة الأوضاع بحسب اختلاف البلدان..."^(٤٢) ويقول عنها النميري في رحلته: "وتتصل بالزاوية من ناحية الجوف، مدرسة متعددة البيوت، رفيعة السموت، بديعة النعوت، وبها أبواب تشرع إلى ديار كاملة المنافع..."^(٤٣) وحتى حسن الوزان لم يغفلها في كتابه، فقال في شأنها: "... وهناك أيضاً مدرسة جميلة جداً أسسها بعض ملوك بني مرين حسب ما يقرأ ذلك في الرخامتين المنقوش عليهما أسماؤهم". وهي تقع إلى الغرب من المسجد الجامع. وأكدت وثيقة التحسيس المنقوشة على لوح رخامي مثبت على يسار بلاطة محراب الجامع الملاصق لها، والتي نقرأ فيها: "الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، أمر ببناء هذا الجامع المبارك والمدرسة المتصلة بغربيه مولانا السلطان الأعدل أمير المسلمين المجاهدين في سبيل رب العالمين أبو الحسن..."^(٤٤) وُسِّمَت المدرسة أيضاً بالخلدونية في فترة لاحقة، ولعل هذا تأكيد على تعلم عبد الرحمن ابن خلدون بها.^(٤٥)

إن تاريخ تأسيس المدرسة يؤكد النقش التأسيسي الذي يزين قبة رقبة قاعة صلاة المدرسة نفسها، ويتضمن تسعة أبيات شعرية تتضمن ما يلي:^(٤٦)

"الحمد لله رب العالمين،

بناني كي أقيم ديناً

أبو الحسن الذي فيه المزايا

إمام لا يعبر عنه وصف

الإسلام أمير المسلمين

تفوق النظم بالنوم الثمينا

بما أجرى به الأعمال ديناً

رغم الأهمية التاريخية للمدرسة، إلا أنها طُمست آثارها ولم يبق من ذكرها إلا الاسم، وقد كانت هذه المدرسة قائمة ومحافظة على شكلها الأصلي إلى غاية ١٨٧٣م، غير أن السلطات الاستعمارية الفرنسية قامت بإزالتها بغرض تهيئة ساحة عامة وبنيت بدلها دار البلدية الحالية.

٣- المدرسة اليعقوبية:

توجد هذه المدرسة بجوار مسجد الشيخ إبراهيم المصمودي، شرق مسجد أبي الحسن وجنوب غرب المشور في حي باب الحديد. شُيِّدت هذه المدرسة سنة ٧٦٣هـ بأمر من الأمير الزياني أبو حمو موسى الثاني (٧٦٠هـ-٧٩١هـ / ١٣٥٨م - ١٣٨٨م)، بعد أن تربع عرش تلمسان تخليداً لوالده أبي يعقوب الذي أدركته الوفاة سنة ٧٦٣هـ/١٣٦٢م. وكان أبو حمو الثاني، قد أمر بدفن أبيه في رياض يقع بالقرب من باب إيلان، ونقل رفات عميه، أبا سعيد وأبا ثابت، اللذان توليا حكم تلمسان في الفترة السابقة، من مدفئهما القديم في العباد، إلى جوار ضريح والده،^(٣٣) ثم شرع في بناء مدرسة بإزاء أضرحتهم. ويقول التنسي في هذا الشأن، فلما كملت المدرسة نقلوا ثلاثتهم إليها، واحتفل بها وأكثر بها الأوقاف، ورتب فيها الجرايات.^(٣٤) هذا ما يفسر أن تأسيسها جاء حتى يكون هذا المعلم الثقافي رمزاً من رموز شموخ الدولة الزيانية، وهي المدرسة التي أشاد المؤرخون برونقها وجمالها وحسن عمارتها. وقد استغرق وقت بنائها أكثر من سنة ونصف، بحيث انتهى من إنجازها سنة ٧٦٥هـ/١٣٦٤م، وهنا تكمن حكمة مؤسسها الذي قال في شأنه يحي ابن خلدون أن اليعقوبية من أعمال السلطان أبي حمو موسى الثاني^(٣٥) ومن المعروف عن هذا السلطان أنه واسطة عقد الزيانيين،^(٣٦) وأنه أبان عن ولعه الشديد بتشييد المباني من المساجد والمدارس، حيث شرع في تأسيسها فور الانتهاء من مراسيم دفن والده. وقد اشتهرت المدرسة باسم اليعقوبية نسبة إلى والد السلطان أبي حمو موسى- أبا يعقوب- بعد اكتمال بنائها، كما كان يُطلق عليها أيضاً "مدرسة إبراهيم المصمودي"^(٣٧) الذي توفي ودفن بها سنة ٨٠٥هـ/١٤٠٢م، وهذه التسميات إن دلت على شيء فإنها تدل على تكريم العلماء والأدباء، كما تدل على مكانته العلمية والفكرية الراقية في تلك الفترة.

وعلى الرغم من أن المدرسة اليعقوبية هي الشاهد الوحيد الذي يؤرخ لفترة حكم هذا السلطان، ومع ذلك لم يبق منها ما يساعد على إعادة رسم مخططها أو معرفة أقسامها. وكما هو معروف عن السلطان أبا حمو موسى الثاني أنه لم يبدأ في إنشاء عملية البناء والتشييد إلا بعد تخليص تلمسان من السيطرة المرينية، وأعاد للبلاد استقرارها وأمنها. كما أن المصادر التاريخية- بما فيها يحي ابن خلدون مؤرخ الدولة - لم تورد إشارات واضحة حول الظروف التي أحاطت بتأسيس اليعقوبية، خاصة إذا علمنا أن بنو زيان اعتادوا على إضفاء نوع من الاحتفالية على عملية تدشين المباني الكبرى كالمدارس. وأوكل للعالم الشيخ الشريف الحسني أبي عبد الله

والزاوية والضريح معاً^(٥٥) في الحي سكني بمحادثات أسوار تلمسان الشمالية الشرقية التي يتوسطها باب الزاوية.^(٥٦)

لقد ظلت هذه المنارات العلمية قائمة تؤدي رسالتها التربوية على أكمل وجه حتى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، وهذا بشهادة حسن الوزان: "وتوجد في تلمسان مساجد عديدة جميلة... ولها أئمة وخطباء، كما تحوي أيضاً خمس مدارس بديعة حسنة البناء ومزدانة بالبلاط المألون وغيرها من الأعمال الفنية، شيد بعضها ملوك تلمسان، والبعض الآخر ملوك فاس".^(٥٧) كما أكد مارمول في كتابه إفريقيا^(٥٨) أن تلمسان بها "عدة أساتذة في مختلف مدارس يقومون بالتدريس كل يوم ويؤجرون من أوقاف هذه المؤسسات".

فزودت بالمرافق الضرورية من خزانة للكتب وبيوت لسكنى الطلبة وفرض جريات لهم وللمدرسين.^(٥٩) ومن دون أدنى شك؛ أن فكرة إنجاز المدارس الجامعة من قبل المرينيين لم تكن بالجديدة بل سبقهم في ذلك سلاطين الموحدين وبني حفص. غير أن مدارس المرينيين تميزت عن سابقتها في المجالات التنظيمية والفنية، وكذلك في الفكري الذي نشطته في بلاد المغرب الإسلامي بشكل عام. لذلك استهدف سلاطين بنو مرين استحداث المدارس في بلاد المغرب الأوسط والمغرب الإسلامي عامة لمحاربة المذهبي الموحد وإحياء المذهب المالكي الذي فقد مشروعيته ونشاط فقهاءه.^(٦٠)

خاتمة

ومن دون شك؛ أن تشييد المدارس لم يكن مقتصرًا على عاصمة الدولة الزيانية بل كانت هناك من المدن المهمة مثل: (الجزائر، ووهران، ومليانة، ومستغانم) كانت تتوفر على مدارس، إلا أن المصادر لم تسعفنا بمعلومات عنها، وربما ذلك راجع إلى أن شهرتها لم تتعدى الإطار الجغرافي للمدينة التي تتواجد بها. عكس مدارس تلمسان التي تخطت شهرتها حدود المدينة، بل وحتى حدود الدولة. وأخذت حيزًا هامًا من الكتابات التاريخية على حساب باقي المدن الخاضعة لها. وعلى العموم فالمدارس مهما كان مدى صداها وحجمها، إلا أنها شاركت جميعها في إخصاب الحقل الثقافي والمعرفي لبلاد المغرب الأوسط خلال هذه الفترة بتصديرها لعلماء أجلاء ساهموا في بناء الدولة الزيانية وتفوقها في مجالات عدة كما دعموا صمودها في وجه المخاطر لعدة قرون. وقد صدق من قال: "المدرسة كالزهرة بين الشوك دائمة العطور لا تخشى الويل والثبور".

أقرأ إلى الأنام بها عيونا
فأعلاه وأعطاه يقينا
وإيماناً يكون له معيناً
خلون من السنين وأربعينا
من حوله مقاصده فنونا
على مرضاته دائماً معيناً
لليل أبي سعيد ذي المعالي
وقد سمّاه خالقه علياً
أبان بالصالحات منه دينا
لشهر الربيع الثاني لسبع
إلى سبع ميين فدام سعد
وكان له الإله على الاتصال

وهذا ما يعكس لنا مدى تدبير مؤسسيها واهتمامهم المطلق بتعظيم العلم، ومدى أهمية هذه المدرسة في تكوين الناشئة ونشر العلم والثقافة العربية الإسلامية تدريجاً وتفسيراً وتأليفاً. كما أن السلطان أبا الحسن علياً أوقف على المدرسة والجامع أملاك في المدينة، وهذا حسب ما هو مدون في اللوحة الرخامية التي نُقشت بها الحوالة الحسبية داخل بيت الصلاة في جامع سيدي بومدين التي تحتوي على لائحة الممتلكات. وقد ظلت مدرسة العباد قائمة تصارع عوادي الزمن على الرغم من أن كثيراً من زينتها وزخرفتها الأصلية قد اندثرت بفعل الترميم والإصلاحات التي أدخلت عليها على مرّ العصور فأفقدتها كثيراً من أصولها،^(٤٨) إلا أنها ما تزال تحتفظ بهيكليها وشكلها العام الذي هو شبيه بشكل المسجد، إلا أنها تختلف معه في الوظيفة، فهي تتكون من قاعة للصلاة، وغرف لسكنى الطلبة، وتتوسطها ساحة إضافة إلى المكتبة، ومرافق عامة، وهي تتكون من طابقين. ومن هنا يمكن القول: بأن تصميم المدرسة جاء مزدوج المعالم فهي عبارة عن مسجد مدرسي، ومن هنا يتضح لنا دورها الثقافي الذي تمثل في إلقاء القرآن الكريم، وتدريس العلم إحياء لتقاليد المذهب المالكي وفروعه.^(٤٩)

٢/٢- مدرسة سيدي الحلوي:

إذا كانت مدرسة العباد أول مدرسة تعليمية جامعية أسست ملاصقة للجامع، فإن السلطان أبا عنان فارس المتوكل على الله (٧٤٩هـ/١٣٤٨م - ٧٥٩هـ/١٣٥٨م)، أنشأ هو الآخر مدرسة بجوار ضريح الولي الصالح المتصوف أبي عبد الله الشاذلي الأشبيلي المعروف بسيدي الحلوي،^(٥٠) وكان ذلك سنة ٧٥٤ هـ / ١٣٥٣م.^(٥١) ويكون بذلك السلطان أبا عنان قد حذا حذو والده في هذا المجال. كيف لا والسلطان كما ذكر ابن بطوطة في وصفه لمجالسه العلمية: "لم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم إلى هذه النهاية"^(٥٢) وكفي أبا عنان فخراً أنه عاش تحت رعاية والده الذي حرص على تربيته وتعليمه، فقد تتلمذ على يد أكبر علماء عصره أمثال الأبي،^(٥٣) أستاذ العلامة ابن خلدون في العلوم العقلية، والمفري التلمساني القرشي الذي قرأ عليه صحيح مسلم، وابن الصفار الذي قرأ عليه القرآن الكريم،^(٥٤) وهذا ما جعل والده السلطان أبو الحسن يختاره من ضمن إخوته ويعينه حاكماً على المغرب الأوسط عند توجهه إلى إفريقية الحفصية قصد ضمها إلى سلطانه. ولما تربع السلطان الابن على عرش بني مرين، سار على نهج أبيه في تعظيم الصالحين والعلماء، وكذا بناء المدارس ودور العلم والثقافة، فأُنجز مركزاً دينياً وعلمياً وثقافياً ضخماً يتضمن المسجد والمدرسة

الهوامش:

- (١) د/ محمد الأمين بلغيث، فصول في التاريخ والعمران في الغرب الإسلامي، أنترسيني، الجزائر ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ط١، الجزائر ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م، ص ٢١.
- (٢) ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ج٦، دار صادر، بيروت، ب. ط، سنة ١٩٧٧م، ص ٣٥٣.
- (٣) السبكي، أبو نصر عبد الوهاب بن علي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، ومحمود محمد الطناجي، ج٣، مطبعة عيسى الحلبي وشركاه، مصر، ب. ط، سنة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م، ص ١١١.
- (٤) أبو العباس أحمد بن محمد الغبريني، "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية"، تحقيق راجح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١. ص ١٠٠-١٠١.
- (٥) وداد القاضي، المدرسة في المغرب حتى أواخر القرن التاسع الهجري في ضوء كتاب المعيار المغرب للنشر، الفكر التربوي الإسلامي، أعمال مؤتمر التربية الإسلامية المنعقد في بيروت من ١٥ إلى ٢١ مارس ١٩٨١، ص ٧٠.
- (٦) وداد القاضي، المقال نفسه، ص ١٠٠. أيضًا:
- Hakim, *Arabic-Islamic cities, building and planning principles*, Edition 2, illustrée, 1986, P.76
- (٧) سُميت بهذا الاسم لأنها بنيت بجوار سوق التي تصنع فيه أواني النحاس الأصفر، يُنظر: عيسى الحريري، المرجع السابق، ص ٣٢٤.
- (٨) عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزباني: دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية، موفم للنشر والتوزيع، سنة ٢٠٠٢، ج ٢، ص ٣٢٥.
- (٩) محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة في المغرب الوسيط، دار طوبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ب. ط، سنة ١٩٨٧، ص ٦٩.
- (10) Abbé Barges, *Notice sur la ville de Tlemcen*, journal asiatique, 3eme série, tome11, imprimerie royal, Parie, janvier 1841, P.5.
- (11) Chems Eddin Chitour, *l'Education et la Culture de l'Algerie.Des oririgines à nos jours*, ENAG/EDITIONS-DISTRUBUTIONS, ١٩٩٩, P.78.
- (١٢) عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ج٢، ص ٣٢٥ - ٣٢٦. أيضًا عبد الرحمن بالأعرج، العلاقات الثقافية بين دولة بني زيان والممالك، رسالة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي، قسم التاريخ، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، ٢٠٠٨/٢٠٠٧، ص ٣٦.
- (١٣) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البرشكي التلمساني الشهير بابن الإمام (.../ ٧٤٣ هـ - ... / ١٣٤٢م)، أكبر الأخوين لابني الإمام الفقيه الخطيب محمد بن عبد الله التلمساني، انظر: أبو زكريا يحيى بن محمد يحيى ابن خلدون، "بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد"، الجزء الأول، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ج١، المكتبة الوطنية، الجزائر، سنة ١٩٨٠م، ص ١١٤. أيضًا: عبد الرحمن ابن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غريبًا وشرقًا، دار الكتاب اللبناني، سنة ١٩٧٩، ص ٣٠. أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء من تلمسان، مراجعة أحمد بن أبي شنب، المطبعة الفعلية، الجزائر، سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م، ص ١٣٥ - ١٣٦.
- (١٤) هو أبو موسى عيسى بن محمد بن عبد الله البرشكي التلمساني الشهير بابن الإمام، أخو عبد الرحمن بن محمد (.../ ٧٤٨هـ - .../ ١٣٤٧م)، يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص ١٣٠. أنظر أيضًا: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي، "الأعلام"، دار العلم للملايين، الطبعة ١٥، سنة 2002م، ج ٠٠٥، ص ١٠٨.
- (١٥) عبد الرحمن ابن خلدون، ترجمان العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر
- للطباعة والنشر، بيروت، سنة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ج٧، ص ١٣٤. أنظر أيضًا: يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص ١٣٠.
- (١٦) محمد بن عبد الله التنسي، "نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان"، حققه وعلق عليه، محمود بوعباد، المكتبة الوطنية، ١٩٨٥، ص ١٣٩.
- (١٧) ابن مريم، المصدر السابق، ص ١٢٦.
- (١٨) أبو العباس بن أحمد التنبكي، "نيل الأبتاج بتطريز الديباج"، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢٤٥. يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص ١٣٠.
- (19) MARCAIS G., *Remarque sue les Mederssas Funérair En Berbères A propos de la Techfinia de Tlemcen* (Melaque Gaudforienes; Inst France-Caire; 1937, P. 204.
- (20) Chems Eddin Chitour, *l'Education et la Culture de l'Algérie. des origines à nos jours*, Enag/Editions-Distrubutions, ١٩٩٩, P. 78.
- (٢١) ابن مريم، المصدر السابق، ص ١٢٦.
- (٢٢) رشيد بورويبة، "جولة عبر مساجد تلمسان"، مجلة الأصالة، ع ٢٦٤، جويلية -أوت ١٩٧٥، ص ١٨١.
- (٢٣) د/صالح بن قربة وآخرون، تاريخ الجزائر في العصر الوسيط من خلال المصادر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر ١٩٥٤ طبعة خاصة بوزارة المجاهدين بمناسبة الذكرى ٤٥ لعيد الاستقلال والشباب، ١٤٤٤.
- (٢٤) صالح بن قربة، المرجع السابق، ص ١٤٥. أيضًا: عبد الرحمن بالأعرج، المرجع السابق، ص ٣٦.
- (٢٥) التنسي، المصدر السابق، ص ١٤١.
- (٢٦) لسان الدين محمد بن عبد الله المقرئ ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٣/١٣٩٣م، ج ٥، ص ٢٢٣ - ٢٢٤.
- (٢٧) عبد الرحمن ابن خلدون، التعريف... المصدر السابق، ص ٣١.
- (٢٨) المقرئ، المصدر السابق، ج ٨، ص ١٥٤ - ١٥٧. عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ج ١، ص ١٤٤.
- (٢٩) التنسي، المصدر السابق، ص ١٤١. عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ج ١، ص ١٤٢. عبد الحميد حاجيات، "السلطان أبو حمو موسى الثاني سياسته وأدبه"، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، يوليو ١٩٦٨، ص ٦١. أيضًا:
- William et Georges MARCAIS, *les monuments Arabes de Tlemcen*, Librairie Thorin, Parie, Parie, P.185.
- (٣٠) الحسن بن محمد الفاسي المعروف بالوزان أو ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط ٢، سنة ١٩٨٣، ص ١٩.
- (٣١) التنسي، المصدر السابق، ص ٢٤٨ - ٢٤٩.
- Marcais (G): *Remarques sur les mederssa*, op.cit, p.259.
- (٣٢) صالح بن قربة، المرجع السابق، ص ١٤٧.
- (33) BARGES, *Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom*, sa topographie, son histoire, Paris, 1859, P. 391.
- (٣٤) التنسي، المصدر السابق، ص ١٧٩ - ١٨٠.
- (٣٥) يحيى بن خلدون، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٤ - ١٣٦.
- (٣٦) صالح بن قربة، المرجع السابق، ص ١٥٠.
- (37) Victor Piquet, *Op.cit*, P. 183.
- (٣٨) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن يحيى الشريف بن علي التلمساني، من أعلام المالكية، يُعرف بالعلوي، ولد بها حوالي سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م وتوفي سنة ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م، أنظر: يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٢. أيضًا: لسان الدين ابن الخطيب، المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٢٥. ابن مريم، المصدر السابق، ص ١٦٤ - ١٨٤، ابن

(٥٩) ذكر ابن مريم في ترجمته الفقيهين سيدي أحمد بن عيسى الورنيدي المعروف بأبركان وأحمد بن الحسن الغماري (ت ٨٩٤ هـ/١٤٨٩م) أن الزاوية والمدرسة كانتا قائمتين حتى أوائل القرن ١٠هـ/١٦م. (٦٠) صالح بن قرية، ص ١٧٩.

مخلوف، المصدر السابق، ص ٢٣٤، ابن مخلوف، المصدر السابق، ص ٢٣٤. عمار هلال، المرجع السابق، ص ٧٠. عبد الحميد حاجيات، الحياة الفكرية... المقال السابق، ص ١٤٢. (٣٩) عبد الحميد حاجيات، أبو حمو...، المرجع السابق، ص ١٨٢، عبد العزيز فيلالي، ج ١، ص ١٤٣، أيضًا:

Victor Piquet, Op.cit, P. 205.

(٤٠) عن منجزات أبي الحسن بالعباد، أنظر: ابن مرزوق، المصدر السابق، ص ٤٠٠ وما بعدها. أيضًا: العزيز لعرج، "المدارس الإسلامية ودواعي نشأتها، وظروف تطورها وانتشارها"، مجلة دراسات إنسانية: مجلة علمية محكمة تصدرها دوريًا كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، العدد، ١، ٢٠٠١، ص ٢٣٣ - ٢٣٥.

(٤١) يذكر الحسن الوزان بأن: العباد قرية عتيقة تقع في الجنوب الشرقي من تلمسان، وهي كثيرة الإزهار، وافرة السكان والضياع، بها دفن ولي كبير ذو صيت شهير، وهناك مدرسة جميلة جدًا... أسسها بعض ملوك فاس من بني مرين. يُنظر: الحسن الوزان، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤.

(٤٢) العربي لقريزي، مدارس السلطان أبي الحسن على، مدرسة سيدي أبي مدين نموذجًا: دراسة أثرية وفنية، رسالة ماجستير، قسم الثقافة الشعبية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، ٢٠٠١/٢٠٠٠، ص ٥٥ - ٨٤.

(٤٣) ابن مرزوق، المصدر السابق، ٤٠٦.

(٤٤) ابن الحاج الميري، المصدر السابق، ص ٤٨٨.

(٤٥) الحسن الوزان، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٤.

(46) MARCAIS(G) et William: **Les Monuments Arabes**, Op. Cit, P.274.

(٤٧) صالح بن قرية، المرجع السابق، ص ١٧١ - ١٧٢.

(٤٨) العزيز لعرج: المرجع السابق، ص ٣١٧ - ٣١٨.

(٤٩) صالح بن قرية، المرجع السابق، ص ١٧٥.

(٥٠) يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٧ - ١٢٨. أيضًا: ابن مريم، المصدر السابق، ص ٦٨، ص ٧٠. عبد العزيز لعرج، المرجع السابق، ص ٢٣٢ - ٢٣٥.

(٥١) إبراهيم ابن الحاج النميري، "فيض العباب وإفاضة قذاح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب"، دراسة وإعداد: د/ محمد ابن شقرون، دار الغرب الإسلامي، ط ١، سنة ١٩٩٠، ص ٢٧٩. يحيى ابن خلدون، المصدر السابق، ج ١، ص ١٢٧ - ١٢٨. ابن مريم، المصدر السابق، ص ٦٨ - ٧٠. أيضًا:

Victor Piquet, **Autour des monuments musulmans du Maghreb: Algérie.-Maroc**, Volume 1 de Autour des monuments musulmans du Maghreb: esquisses historiques, G.-P. Maisonneuve, 1948, P. 165.

(٥٢) محمد بن عبد الله بن محمد، المعروف بابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق وتعليق وتقديم، المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ب. ط، ١٩٨٥، ص ٧٦١.

(٥٣) ابن مريم، المصدر السابق، ص ٢١٤.

(٥٤) التميمي، المصدر السابق، ص ٤٢٧.

(55) Marçais (G), **L'architecture, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne, Sicile**, Volume 2, Manuel d'art musulman, métier graphiques, A. Picard, Nouv.éd,1, paris, 1926 - 1927, P. 278-Dhima (A) , op.cit, P. 38.

(56) MARCAIS (G) et William: **Les Monuments Arabes**, Op. cit, P. 285.

(٥٧) حسن الوزان، المصدر السابق، ج ٢، ص ١٩.

(٥٨) مارمول كارخال، إفريقيا، ترجمة، محمد حيي وآخرون، دار نشر المعرفة، الرباط/ ب. ط، ١٩٨٩. المصدر السابق، ص ٣٠٠.